جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

المحاور الفكرية لقصيدة المديح النبوي في العصر العثماني
دراسة موضوعية

إعداد
د/ محمد أحمد عبد الفتاح صحصاح
محاضر بالجامعة القاسمية
دكتوراه الأدب والنقد جامعة الأزهر

(العدد السادس والثلاثون)
(الإصدار الثالث .. أغسطس)
(١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م)

علمية- محكمة- ربع سنوية
الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

المحاور الفكرية لقصيدة المديح النبوي في العصر العثماني
دراسة موضوعية

محمد أحمد عبد الفتاح صحصاح
محاضر بالجامعة القاسمية، إمارة الشارقة، الإمارات العربية المتحدة.
البريد الإلكتروني: msehsah@alqasimia.ac.ae

الملخص:

مما لا شك فيه أن شخصية النبي ﷺ كانت وستظل نبعاً ثراً، ومعيناً لا ينضب على مرّ الزمان فهو ﷺ صاحب الخلق العظيم، ورحمة الله للعالمين، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ولقد وجد الشعراء في شخصه الكريم ﷺ المثل الأعلى، والقدوة الطيبة؛ فانطلقت ألسنتهم تلهج بالثناء عليه ﷺ، وتعدد شمائله وفضائله ومعجزاته.

وقد ظهر هذا الفن مع ظهور الإسلام بمجيئ النبي ﷺ وأذيع بعد ذلك مع انطلاق الدعوة الإسلامية وشعر الفتوحات، ومن الجدير بالذكر " أن هذا الفن لم يبلغ الذروة إلا في عصور الدول المتتابعة على يد الإمام " شرف الدين البوصيري" ت٦٩٦هـ في القرن السابع الهجري.

وقد احتل شعر المديح النبوي في العصر العثماني مكانا مرموقا بين الأغراض والموضوعات الشعرية، وأضحى شعراء المدائح النبوية من أصحاب المكانة المرموقة بين الناس.

وقد كثر شعر المديح النبوي في هذا العصر فوقف الشعراء يفصحون عن مكنون حبهم للنبي ﷺ، ويذكرون فضله ومنزلته، ويتوسلون به ﷺ، ويطلبون شفاعته، ويتشوقون إلى قربه، ويشكون إليه ذنوبهم وما عملته أيديهم، ويعطّرون أشعارهم بالصلاة والتسليم عليه، ويذكرون معجزاته الباهرة التي تشهد بصدق رسالته، ويستعرضون المواقف البارزة في سيرته العطرة.

الكلمات المفتاحية: المحاور، الفكرية، المديح النبوي، العصر العثماني، دراسة موضوعية.

The intellectual axes of the Prophet's praise poem in the Ottoman era, an objective study

Mohamed Ahmed Abdel-Fattah Sehsah
Lecturer at Al Qasimia University, Sharjah, United Arab Emirates.
Email: msehsah@alqasimia.ac.ae

Abstract:
Undoubtedly, the personality of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, was and will remain a source of wealth and an inexhaustible source over time, for he, may God's prayers and peace be upon him, is the owner of great creation, God's mercy to the worlds, and a good example for those who hoped for God and the Last Day. Their tongues began to praise him, may God bless him and grant him peace, and enumerate his merits, virtues, and miracles This art appeared with the emergence of Islam with the advent of the Prophet, may God bless him and grant him peace, and was broadcast after that with the launch of the Islamic call and the poetry of the conquests. The poetry of praise of the Prophet in the Ottoman era occupied a prominent place among the purposes and themes of poetry, and the poets of praise to the Prophet became among those with a prestigious position among the people. The poetry of the Prophet's praise abounded in this era, so the poets stopped expressing the secrets of their love for the Prophet, may God bless him and grant him peace, and mentioned his bounty and rank, and begged for his generous side, and asked for his intercession, and longed for his closeness, and complained to him of their sins and what their hands had done, and perfumed their poetry by praying and greeting him, and mentioning his amazing miracles that witnessed Sincerely his message, and review the prominent positions in his fragrant biography.

Keywords: Axes, Intellectual, Prophetic Praise, The Ottoman Era, An Objective Study.

مقدمة:

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأكرم، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فقد عُرف المديح النبوي منذ بعثة النبي ﷺ ونظمه الشعراء عبر مختلف العصور الأدبية حتى أصبح فنًّا مستقلًّا متكاملًا ويعدّ العصر العثماني من العصور التي ازدهر فيها المديح النبوي، حيث شاع هذا اللون من الشعر الديني، وظهرت فيه الدواوين المستقلة في مدح الجناب النبوي الشريف؛ لهذا ولغيره جاءت هذه الدراسة تتغيّا الكشف عن المحاور الفكرية لقصيدة المديح النبويّ في العصر العثماني من خلال انتخاب بعض النماذج الشعرية التي تخدم الفكرة المطروحة.

واشتملت هذه الدراسة على:

- **المقدمة.**

-المحاور الفكرية والموضوعات التي عالجتها قصيدة المديح النبوي في العصر العثماني.

المحور الأول: التوسل بجاه النبي ﷺ، وطلب شفاعته ونجدته.

المحور الثاني: طلب الشفاعة وشكوى الذنوب.

المحور الثالث: الصلاة والسلام على النبي ﷺ.

المحور الرابع: مدح النبي ﷺ والإشادة بشمائله العطره، وأخلاقه الزكية.

المحور الخامس: الحديث عن معجزاته ﷺ.

المحور السادس: إظهار محبته ﷺ، والشوق إلى زيارته.

المحور السابع: الوصف الحسي والخِلْقي للنبي ﷺ.

المحور الثامن: اعتراف الشعراء بعجزهم عن الوفاء بحقه ﷺ، وتقصيرهم في مدحه.

الخاتمة.

المصادر والمراجع.

والمنهج المتّبع في هذه الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي، الذي يتتبع الظواهر من خلال المادة الشعرية ويحللها، ويقسّمها إلى رؤى وأفكار وموضوعات.

المحاور الفكرية لقصيدة المديح النبوي في العصر العثماني:

تظلّ شخصية النبي ﷺ نبعاً ثرّاً، ومعيناً لا ينضب على مرّ الزمان فهو ﷺ صاحب الخلق العظيم، ورحمة الله للعالمين، والأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، ولقد وجد الشعراء في شخصه الكريم ﷺ المثل الأعلى، والقدوة الطيبة؛ فانطلقت ألسنتهم تلهج بالثناء عليه ﷺ، وتعدد شمائله وفضائله ومعجزاته.

والمدائح النبوية كما عرّفها د/ زكي مبارك: من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع؛ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص "(١).

ولقد ظهر هذا الفن مع ظهور الإسلام بمجيئ النبي ﷺ وأذيع بعد ذلك مع انطلاق الدعوة الإسلامية وشعر الفتوحات، ومن الجدير بالذكر " أن هذا الفن لم يبلغ الذروة إلا في عصور الدول المتتابعة على يد الإمام " شرف الدين البوصيري" ت٦٩٦هـ في القرن السابع الهجري "(٢).

(١) المدائح النبوية في الأدب العربي: د/ زكي مبارك، ص١٤، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، وينظر: كتاب الأدب الصوفي والإسلامي، د: عبد الباسط أحمد علي حموده، ص٩٨، ط: دارالرسالة للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٨٠م.

(٢) الأدب في بلاد الشام: د/ عمر موسى باشا، ص٤٠٨ بتصرف، ط: المكتبة العباسية بدمشق، ١٩٧٢م .

وقد كثر شعر المديح النبوي في العصر العثماني فوقف الشعراء يفصحون عن مكنون حبهم للنبي ﷺ، ويذكرون فضله ومنزلته، ويتوسلون بجنابه الكريم، ويطلبون شفاعته، ويتشوقون إلى قربه، ويشكون إليه ذنوبهم وما عملته أيديهم.

ومن بين هؤلاء الشعراء " الشيخ عبد الغني النابلسي "[1] الذي أفرد ديواناً كاملاً لمدح النبي ﷺ سماه " نفحة القبول في مدح الرسول ﷺ ".

وقد عالجت قصيدة المديح النبوي في العصر العثماني موضوعات متنوعة، وتناولت معاني متعددة، يتصدرها:

المحور الأول:

-<u>التوسل بجاه النبي ﷺ، وطلب شفاعته ونجدته:</u>

كان التوسل من لوازم القصيدة النبوية في هذا العصر، فلا تكاد تخلو منه قصيدة، بل قد تخلو القصيدة من المدح المباشر للنبي ﷺ، وتعداد شمائله وأخلاقه، ليكون التوسل الخالص أبرز موضوعاتها، فها هو الشيخ " عبد الله

(١) عبد الغني إسماعيل بن عبد الغني بن إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم المعروف كأسلافه بالنابلسي، ولد سنة ١٠٥٠هـ بدمشق، وفيها توفي ١١٤٧هـ، مشايخه كثيرون أوردهم صاحب سلك الدرر له كثير من الرحلات، منها رحلة إلى القدس والخليل سنة١١٠١هـ، ورحلته إلى الحجاز ومصر سنة١١٠٥هـ، وإلى طرابلس ١١١٢هـ، وله غير ذلك، أما تصانيفه فتربوا على ثلاثمائة كتاباً ذكرها صاحب السلك في خمس صفحات، أما أشعاره فله ثلاثة دواوين: ديوان الحقائق وهو الجزء المطبوع، وديوان نفحة القبول في مدح الرسول ﷺ، وديوان خمرة بابل وغناء البلابل وهما مخطوطان كانت هذه الدواوين الثلاثة قد جمعت في ديوان سماه ديوان الدواوين، منه نسخه بخط المؤلف في ظاهرية دمشق، ينظر: نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة: لمحمد أمين المحبي، جـ٢، ص١٢٧- ١٥٩، ط: دار إحياء الكتب العلمية، الأولى، ١٩٨٧م، عجائب الآثار في التراجم والأخبار ١٥٤/١، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، تحقيق: د/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبدالرحيم، ط: مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة، الأعلام ١٥٨/٤.

الشبراوي "[١] يستفتح إحدى قصائده النبوية بمناجاة النبي ﷺ، والتوسل بجاهه، وطلب شفاعته، وقد ضاقت على الشاعر الدنيا بما رحبت، وجل الخطب، وتنكّر الإخوان، فلم يجد حيلة إلا أن يلجأ إلى حمى النبوة، عسى أن تنجلي كروبه، وتغفر ذنوبه التي غلبه القضاء عليها، يقول[٢]:من الوافر

رسولَ الله ضاق بي الفضاء ... وجل الخطب وانقطع الرجاء
وجاهك يا رسول الله جاه ... رفيع ما لرفعته انتهاء
رسول الله إني مستجير ... بجاهك والزمان له اعتداء
وبي وجل شديد من ذنوبي ... وما أدري أعفو أم جزاء
وما كانت ذنوبي عن عناد ... ولكن بالقضا غلب الشقاء
وما لي حيلة إلا التجائي ... لجاهك إذ يعز الالتجاء
رجوتك يا ابن آمنة لأني ... محب والمحب له رجاء
عسى بك تنجلي كروبي ... وكم كرب له منك انجلاء
أقلني من ذنوب أثقلتني ... فأنت لعلتي نعم الدواء
وخذ بيدي فإني عبد سوء ... على كسب الذنوب لي اجتراء
وكن لي شفيعاً في يوم حشر ... إذا ما اشتد بالناس البلاء.

(١) هو الإمام الفقيه المحدث، الأصولي، المتكلم، الشاعر، الأديب، عبد الله بن محمد بن عامر بن شرف الدين الشبراوي الشافعي، ولد سنة ١٠٩٢هـ، ترجمه الأمين المحبي في خلاصة الأثر ووصفه بالذكاء والحفظ، تولي مشيخة الأزهر سنة ١١٣٧هـ، وله ديوان شعر ومؤلفات أخرى

، وهو الإمام السابع لمشيخة الأزهر، توفي سنة ١١٧١ هـ . ينظر: عجائب الآثار في التراجم والأخبار: للجبرتي، جـ١، ص٣٤٧ –٣٤٩،، وينظر: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: محمد خليل المرادى، جـ٣، ص١٠٧ وما بعدها، ط: دار الكتاب الإسلامى – القاهرة، د– ت، والأزهر في ألف عام: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، جـ١، ص٢٤١، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، ط الثانية، ١٤٠٨هـ–١٩٨٨م.

(٢) ديوان الشيخ الشبراوي، ص ٤، ٥، طبع الديوان بالمطبعة الكاستلية بمصر سنة ١٢٩٣هـ.

ولا يخفى ما تنطوي عليه بعض الأبيات من المبالغات كمثل قوله:

أقلني من ذنوب أثقلتني..... فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يقيل أحدا من ذنبه.

ومن القصائد ذات التوسل الخالص قصيدة الشاعر "جعفر البيتي "[1] ت١١٨٢هـ، والتي يتوسل فيها بالنبي ﷺ وآله، ولكنه لا يبدأ القصيدة بالغزل كعادة كثير من شعراء عصره، بل يبدؤها بفكرة لطيفة إذ يرى أن جواره للنبي ﷺ بسكناه المدينة، موجب لإجارته وشفاعته، ولو أساء فعلاً، حيث إن ذمة الجوار توجب ذلك، وأن رسول الله ﷺ هو مقصده ومعتمده، وملاذه ومفزعه، ونصيره، بل هو رأس ماله الذي أعده لنوائب الدهر ونوازله، يقول في هذه المعاني [2]:من الخفيف

---

(١) هو جعفر بن محمد البيتي السقاف با علوي الحسيني، اشتهرت أسرته بالبيتي، نسبة إلى قرية "بيت مسلمه "، من أعمال مدينة " تريم " بحضرموت، ولد بالمدينة سنة ١٨١٠هـ، واشتغل بتحصيل العلوم منذ حداثة سنه، جمع بين السياسة والرياسة، والعلم والأدب، وكان وثيق الصلة بأشراف مكة، وتولي لهم المناصب في المدينة وينبع وله معرفة بالتاريخ الأنساب، من آثاره ديوان شعره، وله عدة نسخ وكتاب " مواسم الأدب وآثار العجم والعرب " في الأدب والتاريخ، توفي بالمدينة سنة ١١٨٢هـ . عجائب الآثار، جـ١، ص٥٠٥، سلك الدرر، جـ٢، ص٩ .

(٢) مخطوطة ديوان البيتي، ص٢١، ٢٢، نسخه مصوره من مكتبة جامعة الرياض، قسم المخطوطات بالمملكة العربية السعودية،وهذه النسخة رديئة، بأطرافها تآكل وتمزق، خطها نسخ معتاد، ناقصة الأول،وهي ١٣١ ورقة، تحت رقم ٦، ٨١١، مخطوطات .

(٢) مسألة التوسل بالنبيﷺ من الأمور المختلف فيها ولذلك آثرت أن أنقل فتوى دار الإفتاء، رقم الفتوى: ٥٧٩

حكم التوسل بجاه النبي ﷺ؟

التوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم جائز في مذهبنا ومذهب جمهور أهل العلم من الحنفية والمالكية والحنابلة في المعتمد من كتبهم، وذلك لأن مقام النبي صلى الله عليه وسلم العظيم ومنزلته الرفيعة عند الله عز وجل ثابتة في الكتاب والسنة، ومن توسل بأمر =

لـــي مـــن ذمـــة الجـــوار مجيـــر إن يكـــن جـــاري البشـــير النـــذير
وبظنـــــي وإن أســـــأت فعـــــالاً أن حظـــي مـــن جاهـــه موفـــور
كيف لا وهو مقصدي واعتمادي ومـــــلاذي ومفزعـــــي والنصـــــير
رأس مـــــال أعـــــده للرزايـــــا إن نبـــا الدهـــر أو تخلـــى العشـــير.

ثم يسترسل الشاعر في توسله ويرى أنه ليس من البدع أن نتوسل بجاه النبي ﷺ في الشدائد، فهو جدير بأن يكشف الكرب، وينجي من الضر، بل إنه

=

ثابت فلا حرج عليه لعموم قوله عز وجل: (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) المائدة/٣٥، خاصة وقد ورد في ذلك حديث خاص، وهو حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه حين علمه النبي صلى الله عليه وسلم هذا الدعاء: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ) رواه الترمذي (رقم/٣٥٧٨) وقال: حسن صحيح.

يقول الإمام النووي رحمه الله –في معرض حديثه عن آداب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم–: "ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتوسل به في حق نفسه، ويتشفَّع به إلى ربه سبحانه وتعالى" انتهى. [الأذكار ص/٢٠٥].

ويقول الكمال ابن الهمام رحمه الله: "يسأل الله تعالى حاجته متوسلا إلى الله بحضرة نبيه عليه الصلاة والسلام" انتهى. [فتح القدير ٣ /١٨١].

وفي "حاشية العدوي" (٥/١): "وجعلنا من المتَّبعين له في أقواله وأفعاله، بمحمد وآله وصحبه وعترته آمين" انتهى.

ويقول البهوتي رحمه الله: "ولا بأس بالتوسل بالصالحين، ونصه –يعني الإمام أحمد– في منسكه الذي كتبه للمروذي أنه يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في دعائه، وجزم به في المستوعب وغيره" انتهى. [كشاف القناع ٢ /٧٣].

وعلى كل حال: فالمسألة من مسائل الفروع التي لا يجوز الإنكار فيها وإحداث الشقاق والنزاع، وهذا ابن تيمية رحمه الله –وهو من القائلين بمنع التوسل بالجاه– يقول: "وإن كان في العلماء مَن سوغه، فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى عنه، فتكون مسألة نزاع، فيُرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، ويُبدي كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين، بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم" انتهى. [مجموع الفتاوى ١/ ٢٨٥–٢٨٦]. والله أعلم.

لمن أعظم الخسران أن يسهو الإنسان عن جاهه ﷺ [٢]، ثم يقف الشاعر بباب النبي ﷺ ليمد يد الابتهال، ويصرخ شاكياً طالباً الغوث والوسيلة:مبالغا في توسله ورجائه مبالغة تدعو إلى التساؤل: هل نتوجه بالدعاء إلى النبي ﷺ أم إلى الله تعالى ليكشف عنّا الضرّ، أقول: نتوجه إلى الله تعالى انطلاقا من قوله تعالى: (وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم) يونسُ(١٠٧). يقول جعفر البيتي:

غير بدع إذا دعونا إلى الشد (م) دة جاه النبي فهو جدير
فتمسك به فمن أعظم الخسـ (م) ران سهو عن جاهه أو نفور
وادعه إن أردت أن يكشف الكر (م) ب وينجو من ضره المضرور
يا نبي الهدى إليك مددنا ساعد الابتهال وهو قصير
وأغث صارخاً ببابك يشكو غير الدهر معلناً ويشير
وإن تكن للفقير كنزاً وذخراً ومعيناً يرجي فإني فقير
هات من غارة لديك عهدنا (م) ك بمثلها الغداة تغير
هات من غارة يفك بها العا (م) ني سريعاً ويجبر المكسور
في زمان الرخا اتخذناك ذخراً وقد احتيج ها هنا المذخور
وهززنا مكارماً منك هز الـ (م) جذع نلوي من حوله وندور

لقد ألح الشاعر في رجائه وفي توسله، وطلب الغارة والغوث من النبي ﷺ، ولعله يشير إلى حالة البؤس والسخط على الأوضاع السيئة التي كان يعيشها، كما يلمح إلى ذلك قوله:

في زمان الرخا اتخذناك ذخراًوقد احتيج ها هنا المذخور.

وغالباً ما كان يأتي التوسل بالنبي ﷺ مقروناً **بطلب الشفاعة وشكوى الذنوب**، فها هو ذا الشاعر " خليل الشهواني "[١] ت ١١٥٠ هـ في ختام إحدى قصائده النبوية، يستوقف صاحبه ليكرر أحاديث الغرام، ويبوح بمدح النبي ﷺ، فهو الشفيع غداً في يوم الحشر، وهو الملاذ والغياث في موقف الحكم، حيث تقلّ الحِيَل، كما يتوسل بجاه النبيّ الأسنى ﷺ، لائذاً بحماه، طالباً منه الغوث، شاكياً إليه ذنوبه التي ضيّقَتْ حَبْلَه، وأجهدت قلبه، ثم يعلن في ختام القصيدة حسرته وندمه، إن لم يكن رسول الله ﷺ له معينا وشفيعاً، وعليه متفضلاً [٢]:من البسيط

يا صاح كرر أحاديث الغرام فما ... على المحب إذ ما باح من سدم
وبح بمدح ختام الرسل كلهم ... فهو الشفيع غداً في يوم حشرهم
وهو الملاذ إذ قلت بنا حيل ... وهو الغياث غداً في موقف الحكم
مالي سوى جاهك الأسنى ألوذ به ... فأنت نعم المني يا خير مغتنم
وأنت قصدي وسؤلي ثم معتمدي ... إن لم تغثني أقل: يا زلة القدم
إليك أشكو ذنوباً ضيقت حبلي ... وأجهدتني ومنها القلب في سقم
إن لم تكن لي معيناً في المآب غداً ... تفضلاً فيا حسرتي ويا ندمي

ويتوسل الشاعر " محمد العمادي "[٣]، طالباً شفاعة النبي ﷺ، فهو راحم الضعفاء، وهو الملاذ إذا تراكمت الذنوب، يقول مناجياً النبي ﷺ [٤]:

---

(١) هو خليل المعروف بالشهواني الشافعي القدسي، الشيخ الأديب الفاضل، الفقيه الكامل، كان محبوباً مرغوباً لدى الأعيان، يجلب الأفئدة برقيق ألفاظه، وهو من ذوي البيوت القديمة بالقدس، وله أشعار وقصائد عديده، توفي بالقدس سنة ١١٥٠هـ، ولم يذكر المرادي في ترجمته أكثر من هذا . سلك الدرر، جـ ٢، ص١٠٤ .

(٢) سلك الدرر، جـ٢، ص١٠٤، ١٠٥ .

(٣) محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن المعروف بالعمادي الحنفي الدمشقي، كان عالماً أديباً، ولد بدمشق ١١٧٥هـ، وقرأ القرآن، واشتغل بطلب العلم، وبرع في الفنون وعلا قدره، وتولي إفتاء الحنفية بدمشق سنة١١٢١هـ، وتوفى سنة١١٣٥هـ ، سلك الدرر، جـ٤، ص١٧ .

(٤) سلك الدرر، جـ٤، ص١٩ .

يـا راحـم الضـعفاء نظـرة رحمـة لمعـذب مضـنى الفـؤاد تشـوقاً
يرجـوك فضـلاً أن تمـن ترحمـاً بشـفاعة تمحـو ذنوبـاً سـبقاً
أنـت المـلاذ إذا الذنـوب تراكمـت والغـوث أنـت إذا رجـانا أخفقـا

لقد كان شعراء المديح النبوي يهرعون إلى ساحة النبوة المباركة، احتماءً بالجناب النبويّ الشريف، وهروباً من واقعهم الجريح، وأملاً في انقشاع الكروب والخطوب، فراحوا يستغيثون ويستجيرون بالنبي ﷺ، مستحضرين مكانته عند ربه، فهو ﷺ الطريق إلى الله، وإلى نيل كل مرغوب، وهو الملاذ حين تدْلهِمّ الخطوب، وهو ذخر الضعيف، والشفيع يوم الهول العظيم، يقول الشاعر" مصطفي العلواني "[1] مخاطباً النبي ﷺ [2]:من الخفيف

أنـت بـاب الإلـه مـن يـأت مـن أعـ (م) تابـــه نـــال غايـــة المرغـــوب
أنـت أنـت المـلاذ إن أفظـع الكـر (م) ب ومـدت للفتـك أيـدي الخطـوب
أنـت ملجـا المـؤمنين فكـم منـ (م) ك أنـيخ الرجـا بـواد عشـيب
أنت ذخر الضعيف أن يخشى عند الـ (م) بعـث والحشـر هـول يـوم عصـيب
يـا شفيعـاً هنـاك إذ يوقـع الأنـ (م) فـس فـي المزعجـات كـرب الـذنوب

ومهما كانت الأسباب التي تحدو بالشعراء إلى الإلحاح في التوسل، وطلب الغوث، تبقي الأسباب الذاتية هي المحرك الفعلي لهذا التوجه في كثير من الأحيان، فها هو " ابن معصوم المدني "[3] يتوسل بالنبي ﷺ رجاء أن يكشف

(١) هو مصطفى بن إبراهيم بن حسين بن أويس العلواني الشافعي الحموي، نزيل دمشق، ولد بحماه سنة ١١٠٨هـ، وفيها توفي ١١٩٣هـ، كان من البارعين الأفاضل في فنون الأدب وغيرها، رحل إلى الروم مرات وعاد متقلداً نقابة بلدته حماه، ثم عزل عنها، وجعل دمشق مأواه وسكنه . ينظر: سلك الدرر، جـ٤، ص١٤٢.

(٢) سلك الدرر، جـ٤، ص١٤٣.

(٣) هو علي صدر الدين بن أحمد نظام الدين بن محمد معصوم المدني، وينتهي نسبه إلى =

بـلاءه، وأن يفك أسره، فقد أسر في الهند، فاستنجد واستغاث بحضرة النبي ﷺ، وتمنى عليه أن يرجعه إلى طَيْبَة موطنه، فقد نفد صبره، وقلت حِيَلُه، يقول [١]:

من السريع

فيـــا رســـول الله يـــا خيـــر مـــن	**يقصـــده المـــتهم والمنجـــد**
ســـمعاً فـــدتك الـــنفس مـــن ســـامع	**دعـــوة داع قلبـــه مكمـــد**
دعـــاك والوجـــد بـــه محـــدق	**لعـــل رحمـــاك لـــه تنجـــد**
طـــال بـــي الأســـر وطـــال الأســـى	**ومـــا علـــى ذلـــك لـــي مســـعد**
قـــد نفـــد الصـــبر لمـــا نـــالنى	**وكيـــف لا يفنـــى ولا ينفـــد**
فالغـــارة الغـــارة يـــا ســـيدي	**فإنـــك الملجـــأ والمقصـــد**
أنـــت فـــي الـــدارين لـــي موئـــل	**إذا جفـــا الأقـــرب والأبعـــد**
فاكشـــف بلائـــي ســـيدي عـــاجلاً	**عـــل حـــرارات الأســـى تبـــرد**
وأدننـــــى منـــــك جـــــواراً فقـــــد	**حنـــان بـــي المضـــجع والمرقـــد**
وبـــــوئني طيبـــــة موطنـــــاً	**فإنهـــا لـــي سابقـــاً مولـــد**

=

زيد بن الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب – رضي الله عنهم، ولد بالمدينة المنورة سنة ١٠٥٢هـ، وطبقت شهرته بالآفاق في العلم والأدب، ثم رحل إلى حيدر آباد بالهند سنة ١٠٧٨هـ، وأقام بها أكثر من أربعين عاما، قضاها معظماً= =مبجلاً عند أهلها وملوكها، وتولي هناك عدة مناصب، ثم عاد إلى مكة مع أسرته لحج بيت الله الحرام، وزيارة نبيه ﷺ سنة ١١١٤هـ، له كثير من المؤلفات منها: سلوة الغريب وأسوة الأريب، سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر، أنوار الربيع في أنواع البديع، وغير ذلك أكثر من عشرين مؤلفاً غير ديوان شعره، توفي بمدينة شيراز سنة ١١٢٠هـ . ينظر: ترجمته وافية في صدر ديوانه، ص٥ –٣٠، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط مكتبة النهضة العربية – بيروت، الأولي، ١٤٠٨هـ –١٩٨٨ م .

(١) ديوان ابن معصوم، ص١٣٧ .

ويجمع الشاعر في نبوية أخرى بين التوسل لطلب النجاة من ركوب البحر أثناء زيارته النبي ﷺ، والتوسل لطلب الشفاء من أسقام عزّ بُرْؤُها، يقول [1]: من الطويل

إليك رسول الله أصبحت خائضاً ... بحاراً يغيض الصبر في لجّها الغمر
على ما برانى من ضنى عز برؤه ... وليس سوى رحماك من رائد يبرى
فأنعم سريعاً بالشفاء لمسقم ... تقلبه الأسقام بطناً إلى ظهر
وخذ بنجاتي يا فديتك عاجلاً ... من الضر والبلوى ومن خطر البحر

والحقيقة أن ابن معصوم من بين الشعراء الذين ظهرت لديهم نزعة المبالغة غير المقبولة في مدح النبي ﷺ، فالذي يكشف الضرّ هو الله سبحانه وتعالى، والذي يطعم ويسقي، ويمرض ويشفي، ويعطي ويمنع هو الله سبحانه لا شريك له، وقد دلّت على ذلك الآيات الواضحات في قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢﴾ الشعراء٧٩-٨٢

ويتوسل الشاعر " عبد الحي الطالوي "[2] بالنبي ﷺ، فهو شفيع الخلق، وكهف الضعيف، وسند المخوف، وعون الغريب، ثم يتوسل لطلب الشفاء من مرض عُضَال، أعجز الطبيب، وأقلق الجيران من العويل، يقول[3]: من الوافر

(١) السابق، ص١٧٤ .

(٢) هو عبد الحي بن علي بن محمد بن محمود الشهير بالخال الطالوي الحنفي الدمشقي، ولد بدمشق ولم يذكر أصحاب التراجم سنة مولده، لكنه اتفقوا على وفاته سنة ١١١٧هـ بدمشق، جمع كتاب في الأدب سماه مرور الصبا والشمول وسرور الصبا والمشمول " وله ديوان شعر مخطوط بالظاهرية وبرلين، وله أشعار كثيرة في سلك الدرر . ينظر السلك، جـ٢، ص٢٤٤ – ٢٥٣ .

(٣) تاريخ الأدب العربي: د/ عمر موسي باشا، ص٤١٣، نقلاً عن مخطوطة الديوان ورقة (٢) .

وقولوا يا شفيع الخلق يا من ... به عنا العنا أبداً يزول
ويا سند المخوف إذا رمته ... سهام الذنب وانقطع الوسيل
ويا كهف الضعيف وملتجاه ... إذا ما راعه خطب جليل
ويا عون الغريب ويا رجاه ... إذا ما اختل للخل الخليل
رسول الله قد أصبحت نضواً ... من الأوجاع منطرح عليل
وقد عجز الطبيب وقل صبري ... وأقلق جيرتي مني العويل
ولم ألق لأدواء تراءت ... على جسدي وأعظمها الدخيل
سوى أني نزلت وقلت حسبي ... كريم لا يضام به نزيل

ويتوسل الشاعر "[1]، ويلوذ بالنبي ﷺ رجاء أن يخلصه من مرض أصاب جلده، ويبدو أن الشاعر قد تعرض لحادثة، كانت سبباً في علته، فراح يستجير بالنبي ﷺ ليخلصه من هذا الخطب، يقول [2]: من البسيط

هو الملاذ لمن وافاه منزعجاً ... من حادث فوقه حمل قنطار
لذاك لذت به من حادث نشبت ... في الجلد منه مخاليب وأظفار
خلص فديتك جلدى من مخالبه ... واستر علي فإن الله ستار
وارفع بحقك هذا الخطب إن له ... في القلب ناراً وفي جسمى له نار

(١) حسين بن علي بن حسن العشاري البغدادي الشافعي، ولد سنة ١١٥٠هـ، ولد بقرية تسمي عشار قرب الفرات، قرأ القرآن واشتغل بالتحصيل والأخذ عن علماء عصره، وكان عالماً شاعراً فاضلاً أديباً، عمل بالتدريس في البصرة، ولم تذكر الترجمة تاريخ وفاته . سلك الدرر، جـ٢، ص٦٩ .

(٢) السلك، جـ٢، ص٧٠ .

المحور الثاني الصلاة والسلم على النبي صلى الله عليه وسلم

ومن الموضوعات التي جاءت لصيقة بالتوسل، الصلاة والسلام على النبيﷺ، فكما حرص الشعراء على التوسل والشفاعة، حرصوا كذلك على ختم قصائدهم بالصلاة والسلام عليه ﷺ، فكانت من لوازم القصيدة النبوية، ولا تكاد تخلو منها قصيدة، وقد راح الشعراء يفتنّون بتقليب معانيها بما يدل على تكثيرها ودوامها، يقول " البيتي " في ختام إحدى قصائده [١]:

وعليك الصلاة ثم السلام دائم في البكور والأسحار

ويقول " ابن معصوم " [٢]:

عليك صلاة الله ما اخضرت الرّبا وماسَتْ غصون الروض في حلل خضر

ويقول النابلسي [٣]:

صلى عليك إله العرش ما صدحت ورقاء يذهب ترنامها الحزن

ويقول " سعدي العمري " [٤]:

عليه صلاة الله ما لاح كوكب تصافح ذياك الحمى عند مغداها

لقد ربط الشعراء الصلاة والتسليم على النبي ﷺ بمظاهر الطبيعة الكونية طلبا للكثرة والدوام، كتوالي البكور والأسحار، واخضرار الربى، وصدح الحمام، وظهور الكواكب، وتلك مشاهد دائمة في الكون.

وقد تأتي الصلاة على النبي ﷺ مرتبطة بمعنى آخر، كدوام المسير إلى أرض الحجاز، ومن ذلك قول " محمد العمادي "[٥][٦]:

---

(١) ديوان جعفر البيتي، ص٢٥ .

(٢) ديوان ابن معصوم، ص١٧٤ .

(٣) نفحة القبول، ص٤١ .

(٤) السلك، جـ٢، ص١٥٤ .

(٥) سبقت ترجمته، ص ٤٢.

(٦) السلك، جـ ٤، ص١١ .

صلى عليك الله ما ركْب سرى نحو الحجاز قاصداً أرض النقا

لقد كان التوسل بالنبي ﷺ وطلب شفاعته وغوثه، والصلاة عليه، من أركان المدحة النبوية ولوازمها – في العصر العثماني – حيث أظهر الشعراء من خلاله بعض همومهم، ومكنونات نفوسهم، كما أبرزوا مكانة النبي ﷺ في قلوبهم فهو الجدير بأن يتوسل به، ويستنجد بجاهه، كما أظهروا تفنّنهم في كثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ.

المحور الثالث: مدح النبي ﷺ والإشادة بشمائله

ومن الموضوعات والمعاني التي عالجتها قصيدة المديح النبوي، مدح النبي ﷺ والإشادة بشمائله العطره، وأخلاقه الزكية، وإبراز فضله على الإنسانية جمعاء.

نظر الشعراء إلى كمال النبي ﷺ وشمائله، وفضائله حيث جعله الله تعالي مثالاً للكمال الإنساني، فأشادوا بكمال أخلاقه وفضله على سائر الأنبياء، كما عرجوا على كرم أصله، وعنصره، وإبراز فضله على الإنسانية جمعاء، فقد بدّدت أنواره ﷺ ظلمات الشرك والكفر، وأصبحت به ملة الإسلام ظاهرة باهرة، يقول الشيخ " عبد الغني النابلسي " [(١)]:من البسيط

يا أكمل الناس في خلق وفي خلق يا من على سر وحي الله مؤتمن
يا سيد الأنبياء والمرسلين ومن به الفروض بدت للخلق والسنن
با من أتي وربوع الكفر عامرة وبالمشركين وفيهم يعبد الوثن
فقام يدعو لدين الله منتظراً حتى انجلت ظلمات الريب والدجن
وأصبحت ملة الإسلام ظاهرة وزالت الغُمّتَان الكفر والفتن

(١) مخطوطة ديوان نفحة القبول في مدح الرسول ﷺ للشيخ عبد الغني النابلسي ورقة ٣٥، ٣٦، نسخه مصورة من موقع جامعة الملك سعود، بخط حسن بن محمد البيتماني ت١١٨٦هـ، نسخة جيده خطها نسخ معتاد، بها أثر بلل في أطرافها، وبها أخطاء إملائية كثيرة .

وأخذ الشعراء يتغنون بشمائل النبي ﷺ وفضائله، ومقامه السامي عند ربه، وفضله على سائر الأنبياء، ويمزجون ذلك بشرف نسبه، وأصالة محتده وعنصره، يقول " ابن معصوم " [1]: من السريع

يا عين هذا المصطفى أحمد ... خير الورى والسيد الأمجد
وموطن الصفوة من هاشم ... يا حبذا الموطن والمشهد
خير قريش نسباً في الورى ... زكا به العنصر والممتد
وخيرة الله الذي قد علا ... به العلى والمجد والسؤدد
غرته تجلو ظلام الدجى ... وهو الأعز الأشرف الأسعد
الفاتح الخاتم بحر الندى ... وبره والمنهج الأقصد
فضله الله على رسله ... وسائر الرسل به تشهد

وإذا كان الشعراء يمدحون الرجل بطيب المحتد، وعراقة الأصل، وكرم الأجداد والآباء، فإن رسول الله ﷺ عند مُدّاحه أفضل الناس أصلاً، وأزكاهم نسباً، وأكرمهم محتداً "[2]، يقول الشاعر " قاسم البكرجي "[3] [4]:من الطويل

هو المصطفى من خير أولاد آدم ... وأشرفهم قدراً وأرفعهم مجدا
وأطيبهم نفساً وأعلاهم يداً ... وأثبتهم قلباً وأكثرهم زهدا
وأعرقهم أصلاً وفرعاً ونسبة ... وأكرمهم طبعاً وأصدقهم وعدا

---

(١) ديوان ابن معصوم، ص١٣٥، ١٣٦ .

(٢) المدائح النبوية حتي نهاية العصر المملوكي: محمود سالم محمد، ص٢١١، ط: دار الفكر المعاصر –بيروت، لبنان، ط ١٩٩٦م .

(٣) هو قاسم بن محمد المعروف بالبكرجي الحنفي الحلبي أحد العلماء الأفاضل، الأديب الألمعي اللوزعي البارع، ولد بحلب وقرأ علي معاصريه، وكان عالماً بالحديث والفقه والفرائض، وله قدم راسخة في العربية والفصاحة ، والبلاغة والبديع والشعر، من تآليفه:" شرح الهمزية للبوصيري، وبديعية استدرك فيها أشياء على من قبله، وكانت وفاته سنة ١١٦٩هـ . سلك الدرر، جـ٤، ص١٠ وما بعدها .

(٤) السلك، جـ٤، ص١١ .

فرسول الله ﷺ هو صفوة الخلق الذي لا يقاربه أحد في كرم المَنْبت، وسمو الأصل، وهو لم يشرف بنسبه – كما هو الحال عند جميع البشر – وإنما شرف به نسبه، وجاز به أهله مدارج العلا والرفعة [١]:

وحازت قريش في البرية رفعة ... به لم تحزها دارم وتميم

ويقول ابن معصوم [٢]:من الطويل

هو المجتبى المختار من آل هاشم ... فيالك من فرع زكى ومن نجر
به حازت العليا لؤي بن غالب ... وفاز به سهماً كنانة والنضر
قضي الله ألا يجمع الفضل غيره ... فكان إليه منتهى الفضل والفخر

لقد مزج الشعراء في مدحهم النبي ﷺ بين المعاني والصفات التقليدية التي درج عليها المادحون، كالصفات الأخلاقية، وكرم الأصل، وبين المعاني والصفات النبوية، فرسول الله ﷺ هو الذي أرسله الرحمن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، والنبوّة والرسالة أظهر صفاته، ولا يعقل أن يمدحه الشعراء دون أن يتطرقوا لمكانته الدينية، وفضائله ومواهب الله تعالي له، يقول ابن معصوم [٣]: من الطويل

(١) نفحة القبول للنابلسي، ص٤١ .
(٢) ديوان ابن معصوم، ص١٧٣ .
(٣) السابق، ص١٧٣، ١٧٤ .

وأرسله الرحمن للخلق رحمة ... فأنقذهم بالنور من ظلمة الكفر
وأودعه العلام أسرار علمه ... فكان عليها نعم مستودع السر
.....
له خلق لو لامس الصخر لاغتدى ... أرق من الخنساء تبكى على صخر
وجود لو أن البحر أعطى معينه ... جرى ماؤه عذباً يمد بلا جزر
إذا عبس الدهر الضنين لبائس ... تلقاه منه بالطلاقة والبشر
وإن ضن بالغيث السحاب تهللت ... سحائب عشر من أنامله العشر
ففاضت على العافين كف نواله ... فكم فك من عسر وكم فك من أسر
وكم للنبي الهاشمي عوارف ... يضيق نطاق الحمد عنهن والشكر

ومن الملاحظ أن الشعراء في مدحهم للنبي ﷺ لم يقفوا طويلاً عند صفاته وخلاله، وكان جل حديثهم مجملاً، فلم يخصوا صفة بعينها بشيء من التفصيل والعرض.

ومن الموضوعات التي عالجتها قصيدة المديح النبوي في العصر العثماني:

-المحور الرابع الحديث عن معجزات النبي ﷺ.

اعتاد شعراء المديح النبوي أن يشيروا إلى معجزات النبي ﷺ، التي تشهد بنبوّته، وفضله على الأنبياء، وتؤيد صدق دعوته، فها هو " خليل الشهواني" يستعرض بعض معجزات النبي ﷺ فهو الذي صعد إلى السماوات حتى كان قاب قوسين أو أدني في رحلة الإسراء والمعراج، وهو الذي حدثه الضّبّ، وحنّ إليه الجذع، وكلّمه البعير، وانشقّ له القمر [١]:من البسيط

وقد رقى السماوات العلا ودنا ... من قاب قوسين أو أدنى ولم يهم
وخاطبته الظبا والجذع حن له ... لديه قد أفصحت البدن بالكلم
والبدر شق له والضب كلمه ... وقد غدا معدنا للجود والكرم

وتناول " ابن معصوم المدني " في مديحه الحديث عن بعض الآيات الباهرات والمعجزات المؤيدات التي أيد الله – عز وجل – بها نبيه ﷺ فكانت ظاهرة وواضحة كالشمس يبصرها الأكمه والأرمد، ولا ينكرها إلا جاحد، فحديثها ما كان بالمفتري، واختار الشاعر من بين معجزات النبي ﷺ حنين الجذع، وتسبيح الحصى في يديه، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ، وانشقاق القمر [٢]:من السريع

آياته كالشمس في نورها ... أبصرها الأكمه والأرمد
حن إليه الجذع من فرقه ... وفي يديه سبح الجلمد
والماء من بين أصابيعه ... فاض إلى أن روي الورد[٣]

(١) السلك، جـ٢، ص١٠٤ .

(٢) ديوان ابن معصوم، ص١٣٦، ١٣٧ .

(٣) في البيت ضرورة شعرية: فكلمة أصابيع على غير القياس، والصحيح أصابع .

ويعرض " النابلسي لبعض معجزات النبي ﷺ فيذكر حادثة شق الصدر، وانشقاق القمر، وحنين الجذع، وتسبيح الحصى، وتسليم الحجر عليه ﷺ، ونبع الماء من بين أصابعه ﷺ، وسعي الشجر إليه حين ناداه، يقول [١]:من البسيط

محمد المصطفى المختار من تليت ... في مدحه بيننا الآيات والسرور
قد شق عن قلبه للغسل مضجعاً ... خرجت مضغة منه هي القذر[٢]
وكان شق على الكفار مبعثه ... وشق من غير إشكال له القمر
والجذع حن إليه والحصى نطقت ... في كفه وعليه سلم الحجر
والماء قد سال عذباً من أصابعه ... وقد سعت حين نادها له الشجر

لقد عرض الشعراء لمعجزات النبي ﷺ عرضاً مجملاً، الأمر الذي أتاح لهم سرد المعجزات الكثيرة في أبيات قليلة، دون الوقوف على تفاصيل المعجزة، وهذا هو السائد عند جلّ الشعراء في هذا العصر، وقد خالف هذا النهج الشاعر " علي المرادي "[٣] ففصل في معجزة الإسراء والمعراج، حيث ذكر الإسراء من مكة إلى القدس، وإمامة النبي ﷺ بالأنبياء جميعهم، وعروجه ﷺ بالبراق في صحبة جبريل عليه السلام، ووصول النبي ﷺ إلى حيث قاب قوسين أو أدني، ورجوعه ﷺ إلى ربه في فرضية الصلاة رحمة بأمته، يقول [٤]:من الكامل

(١) ديوان نفحة القبول، ص٢١ .
(٢) كلمة غير لائقة بمقام مدح النبي ﷺ .
(٣) سبقت ترجمته، ص٥٢.
(٤) السلك، جـ٣، ص٢٢٢ .

وبسورة الإسراء أسرى عبده ... من مكة البطحا لقدس يمما
أنت الذي في الأنبياء جميعهم ... كنت الإمام وما برحت مقدما
ولقد عرجت على البراق مصاحباً ... لأمينة يا خير من وطئ السما
حتى وصلت إلى العلا في همة ... ولقاب قوسين الدنو مكرما
للسدرة العليا تجرد أذيلاً ... فيها الفخار وقد حظيت تكلما
حتى تراجع ربك الأعلى لنا ... فيما يقول من الصلاة ترحّما

ومن الموضوعات التي تضمنتها قصيدة المديح النبوي:

المحور الخامس: إظهار محبته ﷺ، والشوق إلى زيارته:

انطلاقاً من حب النبي ﷺ والتعلق به، راح بعض الشعراء يظهرون اشتياقهم الشديد، ومدى حبهم للنبي ﷺ، وحنينهم إلى زيارته والقرب منه، وقد تكررت هذه المعانى عند الشيخ " عبد الغني النابلسي " كثيراً في ديوان " نفحة القبول، ومن ذلك قوله مشتاقاً لزيارة النبي ﷺ [١]:من الخفيف

يا أهيل الحجاز إنّ فؤادى ... برحت بعدكم به البرحاء
يا أهيل االحجاز بالقرب جودوا ... وادركونى فإن صبرى هباء
يا أهيل الحجاز طال بعادى ... وبقلبى من التشوق داء
يا حبيب القلوب منا ويا من ... تتقوى بمدحه الضعفاء

لقد اعتاد الشيخ في قصائده أن يستهلها بإرسال التحيات والأشواق إلى رحاب النبي ﷺ إظهاراً لشوقه، وحنيناً إلى القرب منه ﷺ، يقول [٢]:

(١) نفحة القبول، ص٢ .
(٢) السابق، ص٣٦ .

من البسيط

يـا سـايق الظعـن بلـغ أهـل كاظمـة عنـى السـلام ففـي التبليـغ توكيـل
واشرح لهم بعض ما ألقي وقل دنف علـى موايـد[1] حـب فيـه تطفيـل
يشتـاقكم والليـالى لا تسـاعده كأنـه مـا بـه للوصـل تأهيـل

وكثيراً ما تمنى الشيخ زيارة النبي ﷺ، وتمني أن تجود الليالي بالوصال، وتقر عينه بالقرب من النبي ﷺ [2]:من الخفيف

ليـت شـعرى متـى تجـود الليـالي بوصـال وتسـمح الأوقـات
ويـزور المشـوق تربـة طـه ويـزول النـوى وهـذا الشـتات
وعيـوني تقـر منـه بقـرب وعـن القلـب تسـكن الزفـرات

ويظهر " ابن معصوم " حبه الشديد للنبي ﷺ، ويتخذه ذخراً ليوم القيامة، إذ يقول[3]:

حُبّـك ذخـري يـوم لا والـد يغنـى ولا والـدة تسعـد

ويصور " محمد العمادي " حبّه الشديد للنبيّ ﷺ ومدى شوقه وتلهّفه لزيارته ﷺ، ومُثُوله في هذه الرّحاب المقدسة، حيث مثوى الحبيب ﷺ، ليلثم ترابها، وينشق عَرْفها الزّكي، يقول مخاطباً النبي ﷺ [4]:من الكامل

(١) قلب الشاعر الهمزة ياءً طلبا للتخفيف، وهذه لهجة من اللهجات .
(٢) نفحة القبول، ص٥ .
(٣) ديوان ابن معصوم، ص١٣٧.
(٤) السلك، جـ٢، ص١٩ .

أنجد لعبد قد تملك قلبه ... حب الجناب وعمره ما أعتقا
هاجت له الأشواق جمرة لوعة ... في قلبه فقضت بسقم أحرقا
ما حال يوماً عن غرام صادق ... لا والذي قدما تفرد بالبقا
إن كان يوماً بالديار مخلفاً ... فالقلب منه حيث أنتم أوثقا
أو كان قيده القضاء بجسمه ... فالشوق قد وافي لنحوك مطلقا
فاشفع لعبدك كى يزورك سيدى ... ويرى ضريحاً بالرسالة مشرقا
من لي بلثم تراب ذياك الحمى ... أو أن أكون لعرفه مستشقا
مثوى حبيب قد ثوى في مهجتي ... ومقام ذي الشرف الرفيع المنتقي

المحور السادس: الوصف الحسي لكماله وجماله ﷺ، كما فعل ذلك الشاعر " محمد الجمالي "[١] .

فقد وصف النبي ﷺ وصفاً حسياً مجرداً، لأعضاء جسده الشريف، كوجهه، ورأسه، ولونه...إلى غير ذلك [٢]:من الخفيف

(١) هو محمد بن علي بن مصطفي المعروف بالجمالي الحنفي الجلبي، العالم الأديب ناظم عقود اللآلي، ولد في حلب سنة ١١٠٨هـ، ونشأ بها وأخذ العلم عن علمائها، وكان دمث الأخلاق يلاطف الناس، وله إنشاء بليغ ونظم بديع، توفي في حلب سنة ١١٧٣هـ . ينظر شعره وترجمته في سلك الدرر، جـ٤، ص٧١ –٧٤ .

(٢) سلك الدرر، جـ٤، ص٧١ .

كمـــــل الله خلقـــــه وحبـــــاه ... حليـــــة توجـــت بكـــل بهـــاء
كـــان فخمـــاً مفخمـــاً يـــتلالا ... وجهـــه بالضـــيا كبـــدر الســـماء
ضـــخم الـــرأس والكـــراديس ذا مســـ (م) ... ربـــه وهـــي آيـــة النجبـــاء
أزهـــر اللـــون أدعـــج العـــين أقنـــى ... الأنـــف رحـــب الجبـــين ذي الـــلألاء
أشـــنب الثغـــر أفـــرق الســـن وضـــا (م) ... ح المحيـــــا ذا لحيـــــة كثـــــاء
أهدب الجفن بارع الحسن عذب النط (م) ... ق يـــم التقـــي كثيـــر الحيـــاء
ظـــاهر البشـــر كـــان يفتـــر عـــن أمـــ (م) ... ثـــال حـــب الغمـــام بـــاهي الســـناء
عنقـــه جيـــد دميـــة فـــي صـــفاء ... ونقـــاء كالفضـــة البيضـــاء (١)

لقد استطرد الشاعر في الوصف الحسي والخِلقي عبر أكثر من عشرين بيتاً، مستلهماً أوصاف النبي ﷺ من الأخبار الصحيحة، والآثار الواردة في وصفه ﷺ.

ومما يلحق بمدح النبي ﷺ وتعداد شمائله:

المحور السابع:

اعتراف الشعراء بعجزهم عن الوفاء بحقه ﷺ، وتقصيرهم في مدحه:

ﷺ وقف الشعراء عاجزين عن حصر أوصافه وخلاله ﷺ مُقِرّين أنهم مهما أوتوا من البلاغة والبيان لن يستطيعوا عد فضائله، كما أيقنوا كذلك أنهم لن يبلغوا العلا في المدح والثناء على النبي ﷺ، وذلك بعد أن أثنى عليه ربه، فماذا هم قائلون؟

(١) كان ﷺ (أزهر اللون) أي نيره، أو أحسنه أو أبيضه، وكان (أدعج) أى شديد سواد الحدقة، (أشكل) أى: فى بياض عينيه يسير حمره، (أهدب الأشفار) أى: كثير شعر حروف أجفان عينيه، (أبلج)، (مدور الوجه)، (واسع الجبين)، (كث اللحية)، (عظيم المنكبين)، (ضخم العظام)، وردت هذه الأوصاف جميعها في كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفي ﷺ: للقاضي عياض، شرحه: الملا علي القاري، جـ١، ص١٥١ –١٥٥، ط: دار الكتب العلمية – بيروت .

يقول ابن معصوم ت [١]:

لا يبلغ الواصف المطري مناقبه وكيف يبلغ أقصى البحر سابحه؟

ويقول علي المرادي[٢]، [٣]:

فـالله خصـك فـي فضـائل عـدة عـن وصـفها عجـز البليـغ وأفحمـا
مـن ذا يـروم ثنـا عـلاك بمدحـه والله قـد أثنـي عليـك وعظمـا
فالشهب لا تحصي كذاك علاك لا يحصى وقدرك يا نبـي تعظمـا

ويقول قاسم البكرجي [٤]:

وإن رامت المداح تعداد فضله وأوصافه لم يستطيعوا لها عدا

ويقول خليل الشهواني [٥]:

لما تحققت أني في مدائحه مقصر تهت من وجدي ومن هيمي

وهكذا تبقي شخصية النبي ﷺ فوق الوصف، وأسمى من المدح مهما امتلك الشعراء من عبقرية وإبداع.

---

(١) ديوان ابن معصوم، ص١١٤ .

(٢) هو علي بن السيد بن محمد بن مراد بن علي المعروف بالمرادي، ولد بدمشق سنة ١١٣٢هـ، ونشأ بها واشتغل بطلب العلم، تولي رتبة قضاء القدس وإفتاء الحنفية بدمشق، ودرس في المدرسة السليمانية وغيرها، وله مؤلفات وديوان شعر، ترجم له ولده السيد خليل المرادي في سلك الدرر، جـ٣، ص٢١٩ وما بعدها وأورد نماذج من شعره .

(٣) سلك الدرر، جـ٣، ص٢٢٣ .

(٤) السلك، جـ٤، ص١١ .

(٥) السابق، جـ ٢، ص١٠٤ .

(٢) –ديوان سجع الحمام في مدح خير الأنام، أبو الفضائل شمس الدين محمد الصالحي الهلالي، ص:٥٢،مطبعة الجوائب قسطنطينية ١٢٩٨.

وبذلك فقد اتضح من خلال هذا العرض لبعض نماذج المديح النبوي في العصر العثماني أن المعاني التي تضمنتها قصيدة المديح النبوي تقليدية، درج الشعراء على طرقها، لكنها صيغت في أثواب جديدة من الألفاظ والأساليب، ويضاف إلى هذه المعاني المقدمة الغزلية التي تصدرت معظم القصائد النبوية، حيث يتغنى الشعراء في مطالع قصائدهم بذكر الأحبة، ويذكرون المعاناة من شدة الوجد، وهجر الحبيب، وما يكتوون به من ألم الفراق، ورحيل الأحباب، والوقوف على الأطلال إلى غير ذلك من لوازم العشق.

والمقدمات الغزلية في المدحة النبوية –كما هو معروف – منهج قديم ظلّ ملازما لمعظم قصائد المديح النبوي في العصر العثماني، ومن ذلك ما ورد في ديوان (سجع الحمام في مدح خير الأنام)، وديوان (نفحة القبول في مدح الرسولﷺ) فقد جاءت جميع القصائد في الديوانين ذات مقدمة غزلية ومن ذلك قول شمس الدين الصالحي: [٢]

يا ربّة الحسن لو تممت حسناك ... لعُدْتِ مُضْنَى وما أضْنَاه إلّاكِ

لا تعجبين فقد أسقمت مهجته ... فالعاشقون وأهل الحيّ قَتْلَاكِ

هل تعلمين بأن الصبّ في قلق ... شوقا إليك وأن القلب يهواكِ.

الخاتمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد ازدهر المديح النبوي في العصر العثماني ولقي اهتماما واضحا من الشعراء، فظهرت فيه الدواوين المستقلة، ومع ذلك جاءت الموضوعات التي استعرضها البحث في مجملها تقليدية مطروقة، جاءت امتدادا للعناصر الموضوعية التي اشتملت عليها القصيدة النبوية في العصر المملوكي.

–دارت قصيدة المديح النبوي حول جملة من المحاور الفكرية والموضوعات على رأسها طلب الغوث والنجدة، والتوسل، وطلب الشفاعة، ولعل كثرة الاستنجاد والاستغاثة بالنبي ﷺ ترجع في مضمونها إلى اضطراب وضعف الأحوال السياسية والاجتماعية، والشعور بالهزيمة النفسية، الأمر الذي يولّد في نفس الشاعر الرغبة في البحث عن قوارب النجاة، ولو كانت نفسية ومعنوية، فيندفع الشعراء – غالبا– إلى الاحتماء بالجناب النبوي الشريف هروباً من الواقع الأليم،حتى بالغوا في مسألة التوسل وطلب رفع البلوى وإقالة العثرات والذنوب مبالغة غير مقبولة في بعض الأحيان ؛ أملًا في انقشاع الكروب والخطوب حتي ولو كانت ذاتية شخصية، فالتوسل والاستغاثة بالنبي ﷺ – في هذا العصر – هي أكثر من إعلان الحبّ والتعلّق بذاته ﷺ، إنها إلى جانب ذلك بحث عن الأمان والاطمئنان في رحاب النبوة المشرّفة:

في زمان الرخا اتخذناك ذخراً وقد احتيج ها هنا المذخور(١)

وبذلك يمكن القول بأن المدائح النبوية في العصر العثماني – في أغلبها – دعت إليها حاجات اجتماعية وسياسية، ونفسية، في ظروف توالت فيها

(١) ديوان جعفر البيتي، ص ٢٣.

الاضطرابات، وتراكمت فيها الأحزان، ولم يكن باستطاعة الشعراء أن يواجهوا ذلك كله بشكل مباشر، فاتجهوا إلى استدعاء التاريخ واستلهام النموذج الأمثل في شخص النبي ﷺ، فهو المغيث، والشفيع، والنصير، وهو السبيل إلى إزاحة الكروب، وانفراج الهموم، كما أوضحت الأمثلة هذه المعاني.

هذا ونحسب المديح النبويّ مديحًا خالصًا يتّسِم بالصدق العاطفيّ، ويترجم عن المحبة والوفاء الخالِصَيْن بعيداً عن أجواء التملّق والتّكسّب، ونستبعد أن يمدح مقام النبوة بالكذب، ويُتَقرّب إليه بالنفاق.

التوصيات:

-يوصي الباحث بضرورة الاهتمام بأدب الدول المتتابعة بشكل عام، وأدب العصر العثماني بشكل خاص؛ لما فيه من مادة شعرية، وموضوعات وقضايا فنية تستحق الدراسة.

-كما يوصي البحث بدراسة دواوين الشعر في العصر العثماني خاصة المخطوط منها والمطبوع طباعة حجرية قديمة؛ لاستجلاء ما فيها من خصائص فنية وسمات أدبية متعلقة بالحركة الأدبية في هذا العصر.

وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع

- الأدب الصوفي والإسلامي، د: عبد الباسط أحمد علي حموده، ط: دار الرسالة للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٨٠م.
- الأدب في بلاد الشام: د/ عمر موسى باشا، ط: المكتبة العباسية بدمشق، ١٩٧٢م.
- الأزهر في ألف عام: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ط: مكتبة الكليات الأزهرية، ط الثانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- تاريخ الأدب العربي: د/ عمر موسي باشا، الفكر المعاصر – بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين المحبي الدمشقي (ت ١١١١هـ)، الناشر: دار صادر – بيروت.
- ديوان ابن معصوم، تحقيق: شاكر هادي شكر، ط مكتبة النهضة العربية – بيروت، الأولي، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨ م.
- ديوان سجع الحمام في مدح خير الأنام، أبو الفضائل شمس الدين محمد الصالحي الهلالي، مطبعة الجوائب قسطنطينية ١٢٩٨.
- ديوان الشيخ عبد الله الشبراوي، طبع الديوان بالمطبعة الكاستلية بمصر سنة ١٢٩٣هـ.
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: محمد خليل المرادى، ط: دار الكتاب الإسلامى – القاهرة، د- ت
- الشفا بتعريف حقوق المصطفي ﷺ: للقاضي عياض، شرحه: الملا علي القاري، ط: دار الكتب العلمية – بيروت.
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، تحقيق: د/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، ط: مطبعة دار الكتب المصرية – القاهرة.

- المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي: محمود سالم محمد ط: دار الفكر المعاصر –بيروت، لبنان، ط ١٩٩٦م.
- المدائح النبوية في الأدب العربي: د/ زكي مبارك، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م
- مخطوطة ديوان البيتي، نسخه مصوره من مكتبة جامعة الرياض، قسم المخطوطات بالمملكة العربية السعودية،وهذه النسخة رديئة، بأطرافها تآكل وتمزق، خطها نسخ معتاد، ناقصة الأول،وهي ١٣١ ورقة، تحت رقم ٦، ٨١١، مخطوطات.
- مخطوطة ديوان نفحة القبول في مدحة الرسول ﷺ للشيخ عبد الغني النابلسي، نسخه مصورة من موقع جامعة الملك سعود، بخط حسن بن محمد البيتماني ت١١٨٦هـ، نسخة جيده خطها نسخ معتاد، بها أثر بلل في أطرافها، وبها أخطاء إملائية كثيرة.
- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة: لمحمد أمين المحبي، جـ٢، ط: دار إحياء الكتب العلمية، الأولى، ١٩٨٧م.